

تحديد نهاية العصر العثماني

والنظر في تداخله مع العصر الحديث

المجالات البحثية في قضية نهاية العصر العثماني وبداية العصر الحديث:

الاتجاه الأول:

حملة نابليون على مصر ١٧٩٨م - ١٢١٣هـ.

يرى عدد من الباحثين في حملة نابليون على مصر نهاية العصر العثماني، وبداية العصر الحديث، ويُعدُّ موقف جرجي زيدان من أقدم المواقف القائلة بهذا الرأي، يقول: ((ما زال ذلك حال مصر حتى طَمَعَ فيها الفرنسيون، وغزوها سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م، وبها ينقضي العصر العثماني من تاريخ آداب اللُّغة الذي نحن بصدده)).

يأتي موقف أحمد أمين وزملائه في كتابهم (المفصل في التاريخ الأدبي) معززاً لهذا الرأي بتقدير حملة نابليون في انتقال الأدب في العصر العثماني إلى العصر الحديث يقول أحمد أمين وزملاؤه: ((لَمَّا قدم بونابارت إلى مصر جاء معه بطائفة كبيرة من العلماء في مختلف العلوم، ومن الأساتذة المبرزين في شتى الفنون)).

ثمَّ ظهر في القرن العشرين عدد من الكتب التي تجعل العصر العثماني جزءاً من عصر أشمل يمتد من سقوط بغداد حتى حملة نابليون، كقول نديم عدي: ((وتبدأ هذه العصور بسقوط الدولة العباسية في بغداد ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وتنتهي بعصر النهضة الحديثة عام ١٧٩٨م، أي زمن استيلاء نابليون بونابارت على مصر)).

أدب عثماني - نظري - المحاضرة: الثانية

✚ ويتفق الدكتور عمر فروخ في كتابه (المنهاج الجديد في الأدب العربي) مع هذا التّحديد
لنهاية العصر، ويتبنّى الدكتور عمر موسى باشا موقفاً مماثلاً في المسألة، فيقول: ((لا
تشمل دراسة العصر العثماني كلّهُ وإِنَّهَا تَقِفُ عند استيلاء نابليون على مصر)).

✚ لقد غدا اسم بونابارت بذلك معلماً من معالم الحديث عن عصر أدبي جديد.
يقول الدكتور شكري فيصل: ((فأمّا عن سِعة هذه العصور فالحق أنّ ما بين ختام العصر
العباسي - سقوط بغداد - وبين بدء عصر النّهضة - دخول نابليون على مصر - ما
يقارب ستة قرون)).

✚ ويتفق الدكتور جودت الرّكابي مع الرّأي السّابق في تحديد نهاية العصر، وإن كان يخالفه
في تحديد البداية، ويتبنّى الدكتور خالد إبراهيم يوسف فكرة امتداد العصر بين سقوط
بغداد وحملة نابليون في كتابه الذي يحمل عنوان (الانحطاط مفهوم وواقع، قراءة أولية
في أدب ما سُمّي بعصر الانحطاط).

ويتفق الفاخوري في كتابه (محاضرات في الأدب العثماني) مع ذلك الرّأي، كما يتفق
الدكتور عمر الدّقاق مع هذا الاتجاه للوعي العربي بالطبيعة العدوانية لحملة نابليون على
الرّغم من دورها الثقافي.

إقرار الباحثين بمجموعة من الحقائق التاريخية والتّغافيد الطّوّرة في هُويّة الأدب بعد حملة نابليون، أهمّها:

١. استمرار السّلطة المباشرة للحكم العثماني في قسم من البلاد العربية إلى ما بعد الحملة
الفرنسية التي قادها نابليون بزمّن طويل كما هو الحال في الشّام والعراق.

أدب عثماني - نظري - المحاضرة: الثانية

٢. استمرار الارتباط غير المباشر بسلطة الحكم العثماني في قسم من البلاد العربية بعد الحملة كما هو الحال في اليمن ومصر.
٣. ظهور السيطرة الأوربية الاستعمارية المباشرة على قسم من البلاد العربية في المراحل التي أعقبت الحملة كما في عدن والجزائر.
٤. الطّواع العدوانية الاستعمارية للحملة الفرنسية على مصر.

الاتجاه الثاني:

حكم محمد علي باشا.

- ❖ يعدّ عدد من الباحثين استيلاء محمد علي باشا على السُلطة في مصر عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م نهايةً للعصر العثماني وبدايةً للعصر الحديث، ويُعدُّ المستشرق الإيطالي كارلو نالينو من أوائل الباحثين الذين قالوا بذلك، ويتابعه بهذا الرّأي أحمد حسن الزّيات، الذي يتقدّم بالزّمن سبع سنوات بعد حملة نابليون على مصر.
- ❖ كما يتفق أحمد الهاشمي مع هذا الاتجاه في كتابه (جواهر الأدب) يناقش الباحثون القائلون بهذا الرّأي الأسباب التي دعّتهم إلى التّقدم بالزّمن سبع سنوات بعد حملة نابليون، ويقرون بأهمية هذه الحملة، ويذكرون مؤثراتها الثّقافية، ولكنّهم يعدّونها تمهيداً أدّى إلى النهضة الحقيقيّة في عهد محمد علي باشا، وهذا ما نجده واضحاً في كتاب محمود مصطفى (الأدب العربي وتاريخه)، يقول: ((ذلك هو ما حمّل بعض المؤرخين للأدب أن يجعلوا الحملة الفرنسية فاتحة العصر الجديد، ولكننا نرى أنّ المبدأ الحقيقي للعصر هو إعلان ولاية محمد علي على مصر ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م، فإنّه منذ ذلك العهد اتّصل المنتج لخدمة

أدب عثماني - نظري - المحاضرة: الثانية

الأدب والعلم في البلاد، وهذا لا يمنع في نظرنا أن نجعل تلك الحملة إرهاباً)). وهذا التوجه في الموقف نجده في كتاب (الوجيز في الأدب العربي) لإبراهيم الكيلاني وزملائه.

الاتجاه الثالث:

أواسط القرن التاسع عشر.

يعدُّ المستشرق الألماني كارل بروكلمان من أوائل الباحثين القائلين بأنَّ أواسط القرن التاسع كانت حقبة انتقال الأدب العربي من العصر العثماني إلى العصر الحديث، ويتكرر مثل هذا الرأي مع المستشرق الفرنسي (ريجييه بلاشير) كما يتبنى رثيف الخوري في كتابه (عصر الإحياء والنهضة) فكرة أواسط القرن، فيبدأ العصر الجديد بسنة ١٨٥٥ م.

الاتجاه الرابع:

الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ م.

يتجاوز بعض الباحثين في تحديدهم نهاية العصر العثماني، وبداية العصر الحديث إلى بداية الحرب العالمية الأولى أو نهايتها، فيقول نعيم الحمصي: ((النهضة الحديثة شاء بعض الباحثين أن يستهلوها باستيلاء نابليون على مصر سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م، ونرى أن نتجاوز هذا التاريخ في أكثر البلاد العربية إلى الحرب العالمية الأولى)).

ويذهب الدكتور محمد التونجي بالتجاوز المذكور إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨م، يقول: ((نختلف معهم في تحديد نهاية العصر، بروكلمان حدده بعام ١٢٦٧هـ وعام ١٨٥٠م، وآخرون ختموه بدخول نابليون مصر عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م، ومنهم من

أدب عثماني - نظري - المحاضرة: الثانية

يرى ذلك بقدوم محمد علي باشا وفتكه بالماليك، وآخرون صعّدوا إلى الحرب العالمية الأولى، وما دمنّا اعتبرنا بدء العصر العثماني بدخولهم بلادنا، فلماذا لا نعتبر جلاءهم عنّا نهاية هذا العصر)).

الحياة العامة في العصر العثماني

الحالة السياسيّة والإدارية:

تركت السلطنة العثمانية البلاد في حالة فوضى من حيث الإدارة والأمن وظهر عجز الولادة والحكام عن القيام بعبء الاستقرار، وانتشرت الرشوة، وأطبق الظلم والظلام، وأصبحت البلاد ملعباً للفتن والاضطرابات، ولم يكن في الدولة العثمانية نظم إدارية مستقرة أو ثابتة، ومع ذلك فهناك بعض المناصب والوظائف والمؤسسات الإدارية التي كانت معروفة في تلك العصور، ويقوم أصحابها بمساعدة السلطان الذي كان هو السلطة المهيمنة على الجهاز السياسي. وربّما طرأ شيء من التعديل على بعض هذه الوظائف والمناصب في عصر سلطان دون آخر.

وأشهر المناصب البارزة في الدولة العثمانية:

١. الباب العالي: وهو هيئة من الوزراء يشكّلون الحكومة المركزية في السلطنة، ويقودُ زمامها رئيس ثانٍ يسمّى الوزير الأول أو الوزير الأعظم، وصار يدعى أيام سليمان القانوني الصدر الأعظم، وهو بمنزلة رئيس وزراء الدولة، ويطلق اسم الباب العالي على مقر تلك الهيئة ويكون عادةً في إسطنبول.
٢. الديوان الكبير: وهو مجلس عام يضم جميع رؤساء الدوائر في الدولة، وكبار الشخصيات السياسية والعسكرية والوجهاء المرموقين، ويجتمع الديوان بأمر

أدب عثمانى - نظري - المحاضرة: الثانية

السُّلطان لبحث الأمور الخطيرة والقضايا العامة لاتخاذ القرارات في السُّلم والحرب، وقد يعقد أربع مرات في الأسبوع.

٣. ومن أركان الدولة البارزين (أركان الدولة):

أ. قاضي العسكر: وكان أحدهما من الأناضول والآخر من الرُّوم إيلي، ثمّ أضيف إليهما قاضي ثالث من إفريقيا، ولم تكن سلطة قضاة العسكر مقتصرة على الشؤون العسكرية، بل تعدّتها إلى القانون المدني برمته، فقد كانوا هم الذين يُعينون جميع الموظفين القضائيين والقضاة ونوابهم، ويؤلفون محكمة الاستئناف العليا.

ب. شيخ الإسلام: وهو من المناصب الهامة ويشغله المفتي الأول، الذي يعدّ رئيس السُّلك القضائي والشَّرعي وبه يرتبط رجال الدِّين المسلمون، والمناصب القضائية والتَّشريح والمحاكم والمدارس الملحقة بالمساجد والهيئات الدِّينية كلّها في السُّلطنة.

ج. القضاة الآخرون: وكانوا يتلون قضاة الجيش بالترتيب.

العلماء الكبار: وهم قضاة العاصمة وعواصم الولايات، وكان القاضي هو صاحب السلطة القضائية العليا في المنطقة، فيقضي وفق مبادئ الشَّرع القائمة على أساس من القرآن والسُّنة.

د. الدَّفتر دار: وهو الذي يناط به أمر الإدارة المالية وفي عهده سجلات الأراضي وتوزيع الإقطاعات ويرافق الصِّدر الأعظم دائماً.

ه. أمير البحرية: (قابودان باشا) هذا المنصب أنشئ أول الأمر من أجل خير الدِّين بربروسا بوصفه ممثلاً للأسطول.

أدب عثماني - نظري - المحاضرة: الثانية

و. صاحب التوقيع (نيجاشي): وهو القيّم على خاتم السلطان وطُغرائه.

ز. الوالي (الباشا): وهو الذي يتولى شؤون الولاية، وكان مقامه في الدولة العثمانية

يعادل مقام الوزير ويعدُّ نائباً عن السلطان، لذا تمتع بصلاحيّة مطلقة يدوّب^١ في

تحصيل أموال الجباية لينال ثقة الباب العالي، ويتصرف كما يريد من حيث فرض

الضرائب، وجبايتها، وتوزيع الإقطاعات، وإقامة العدالة، وإنزال الضرائب.

هذا وقد أخذ التدهور السياسي والضعف الإداري يسريان في جسم الدولة العثمانية،

وصار قواد الانكشارية ينصبون السلاطين ويخلعونهم، إلى جانب تغلغل الفساد، وانتشار

الرشوة، وضاعف من سرعة الانهيار حروب الغرب عامة، وروسيا خاصة ضد تركيا، التي

أصبحت تدعى بالرجل المريض، وانتهى الأمر بعد ذلك بانهيار السلطنة عام ١٣٤١هـ /

١٩٢٢م على يد مصطفى كمال، وطويت صفحة الإمبراطورية العثمانية.

الحالة الاقتصادية:

لا شك أنّ ملاسبات ودواعي كثيرة ساءت الدولة العثمانية مساقاً ذا طابع خاص ولا

سيما في الحياة الاقتصادية؛ فهي أولاً دولة فتح وحرب وتوسع، لا يعرف رعاياها في

الأناضول سوى الخشونة في العيش، والبداوة في الحياة فكانوا بعيدين عن كل تجديد، ولم

يكن لسلاطينهم سياسة مخططة في التبعية الاقتصادية، فعجزوا عن الإصلاح والتطوير، ومما

عمق هذا الاتجاه عندهم عدد من الدول الأوروبية على مسرح السياسة العالمية، هذا بالإضافة

إلى اشتغال الدولة بالحروب الخارجية، وممّا زاد الأمر سوءاً القحط الناشئ عن انخفاض

الأنهار، وقلة سقوط الأمطار، مما أدى إلى حدوث مجاعات.

^١ - يدوّب: يبدأ.

أدب عثماني - نظري - المحاضرة: الثانية

إضافة إلى أن الطريق التجاري الذي كان يربط أوروبا بالشرق الأقصى ويمر عبر بلاد الشرق الأوسط، فيعود عليها بالرخاء، هذا الطريق قد تحول إلى رأس الرجاء الصالح قبيل الفتح الإسلامي فلا عجب أن تسوء الأحوال الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة وتُخمد الحياة في البلاد، لا سيما أن الدولة العثمانية بدأت عهدها بفرض نوع من التقشف على البلاد التي فتحتها، وصاحب ذلك نقل طائفة من المهرة والمهندسين وأرباب الصناعات والفنون إلى الأستانة، الأمر الذي أدى إلى تخلف الصناعات والفنون في مصر، ثم إن المدن العربية كانت في غضون هذه الحقبة لا تزال تتسم بطابع القرون الوسطى، كما كانت مراكز إدارية يتربع فيها الباشوات والبكوات الأتراك أكثر من أن تكون مراكز اقتصادية.

ولا تجد عالماً أو شاعراً في هذا العصر إلا شكى من سوء الأحوال، وكأنَّ الزمان جعله زمان سوء، لخصه الخفاجي بقوله: ((دهرٌ كَلَّتْ فيه مرهفات الطباع، ونفضت الآمال فيه يدها من عُبار الأطماع، وافيناه على الهرم، وقد قلع ضرس الندم بعدما أكل باكورة الكرماء وشابت بالصُّباح ليلاليه الدهماء، ودربَّ خرفاً على عصا الجوزاء)).

فإذا بدأنا بالزراعة وهي المورد الأساسي للسكان وجدناها متأخرة بدائية الأساليب، ونظام ملكية الأراضي في الأقاليم العربية معقد إلى أقصى حد ما بين أراضي الدولة (الأميرية) وهي الأكثر انتشاراً، وأراضي الأوقاف والأراضي الخاصة (الملك الصّرف) وهذه قليلة. والفلاح العربي يعاني الفقر والحرمان والمجاعة، يضاف إلى ذلك العمل الشاق ونظام السخرة وكثرة الضرائب والفرائض، وانعدام الحقوق، ولا بدَّ أن ينعكس ذلك على الفلاح والمحاصيل التي تقل وتتضاءل.

أدب عثمانى - نظري - المحاضرة: الثانية

أما الصناعة: فلا تقل عن الزراعة تأخراً وتخلفاً؛ فقد استمرت الطُّرق البدائية في العمل اليدوي، وكانت الصناعات الحرفية المبنية على هذا العمل اليدوي والقوى المحركة وكانت مسيطرة في أنحاء السلطنة العثمانية وكان الحرفيون منظمين في طوائف وعلى طبقات ولكل طائفة تقاليدها وعاداتها الخاصة وسوقها الخاص من حدادين ونجارين وصناعة وغيرها. ومع جهود الحركة الصناعية وما رافقها من قصور وسائل المواصلات وفقدان الأمن والحاجة إلى تنشيط تبادل المنتجات الصناعية بين المدن المختلفة مع ذلك كله ارتقى فنُّ البناء والعمران، يشهد على ذلك المساجد والمدارس التي خلفها الأتراك ورائهم، كما ازدهرت بعض الصناعات ولا سيَّما ما يتصل بأساس المنازل.

أما التجارة: فكان مجالها ضيقاً ولا سيما التجارة الخارجية؛ بسبب تحول الطريق العالمي، وبقاء السيطرة البرتغالية في بعض المياه العربية، واقتصر كل قطر في مبادلاته على مبدأ الاكتفاء الذاتي.

ومع هذا استفادت الدولة العثمانية من مصر وبلاد الشام والعراق التي كانت من أهم مراكز المواصلات في التجارة العابرة بين أوروبا والشرق، وكانت هذه التجارة لا تزال تدرُّ أرباحاً طائلة برغم تدهورها نوعاً ما بعد اكتشاف ذلك الطريق البحري المباشر إلى الهند، ومع ذلك فإنَّ الحالة التجارية لم تكن في اضطراب مستمر بل كانت في بعض الأقطار العربية فترة انتعاش، كما كانت تُمارس التجارة في المدن ممارسة جيدة مرتبطة بفترات الاستقرار والانتعاش؛ إذ ينمو الإنتاج الحرفي في تلك المدن.